رثاء رياض

ممات في المواكب ام حياة ونعش في المناكب ام عظات
ويومك في البرية ام « قيام » وموكبك الادلة والشيات
وخطبك يا رياض ام الدواهي على انواعها والنازلات
يجل الخطب في رجل جليل وتكبر في الكبير النائبات
وليس اميت تبكيه بلاد كمن تبكي عليه النائحات
اذا شقيت بلاد زال عنها ذخائر من رجال صالحات
هم الماضي يقدره لبيب وللآتي الى الماضي التفات

***

رويداً ايها الماضي « رياضاً » اكان النجم تدركه الوفاة
وهل تلقى مثاياها الرواسي فتهوي ثم تضمرها فلاة
وتكسر في مراكزها العوالي وتدفن في التراب المرهفات
ويغشى الليث في الغابات ظهراً وكانت لا تقر بها الحصاة
ويرمي الدهر « نادي عين شمس » ولا يحمي لواءهم الرماة
أجل حملت على النعش المعالي ووسدت التراب المكرمات
وحملت المدافع ركن سلم يشيعه الفوارس والمشاة
وحل المجد حفرته واسى يطيف به النوائح والبكاة

***

هوى عن اوج رفعته « رياض » وحازته القرون الخاليات
كأن لم يعلو الدنيا نعالاً ولا هتفت بدولته الرواة
نعاه « البرق » مضطرباً فماجت نجوم في السماء محلقات
كأن الشمس قد نعيت عشاء اليها فهي حسرى كاسفات
صحيفة غابر طويت وولت على آثار من درجوا وفاتوا
يقول الآخرون اذا تلوها كذلك فليلدن الامهات
جزى الله الرضا ابوي « رياض » هما غرسا وللوطن النبات

بنو الدنيا على سفر عقيم واسفار النوابغ مرجعاتُ (١)
ارى الاموات يجمعهم نشور وكم بُعث النوابغ يوم ماتوا
صلاحُ الارض أحياء وموتى وزينتها وانجمها الهداةُ
قرائحهم وايديهم عليها هدًى ويَسارة ومحسّناتُ
فلو طُلبت لهم دية لقالت كنوز الارض نحن هي الديات

***

ابا الوطن الاسيف بكتك «مصر» كما بكت الاب الكهفَ البنات
قضيت لها الحقوق فتىً وكهلاً ويومَ كبرتَ واخنت الفتاة
ويوم النعيُ للامراء فيها ويوم الآمرون بها العصاة
ويومَ جرى القضاء بما جناهُ على الاعقاب والوطن الجناة
فكنت على حكومتها سراجاً اذا بسطت دُجاها المشكلات
يزيد الشيب نفسك من حياة اذا لقصت مع الشيب الحياة
وتملأكَ السنون قوًى وعزماً اذا قيل السنون مثبّطات
كسيف الهند أبلى حين فُلّت ورقّت صفحاهُ والظبات
رفيعُ القدر بالامصار ترمي كما نظرت الى النجم الشراة
كأنك في سماء الملك «يحيى» وآلك في السماء النيّرات
تسوس الامر لا يُعطى نفاذاً عليك الآمرون ولا النهاة
اذا الوزراء لم يعطوا قياداً نبذتهمُ كأنهم النواة
زَماعٌ في انقباض في اختيال كذلك كان «بسمرك» الثبات (٢)
صفات بلّغتك ذرى المعالي كذلك ترفع الرجل الصفات
وجدت المجد في الدنيا لواءً تلقّاهُ المقاديم الأباة
ويبقى الناس ما داموا رعايا ويبقى المقدمون همُ الرعاة

***

«رياض» طويت قرناً ما طوتهُ مع «المأمون» «دجلة» و «الفرات»
تمنّت منهُ أياماً تحلّي بها الدول اخوالي الباذخات
وود «القيصران» لو أن «روما» عليها من حضارتهِ سمات

(١) اي ترجع بالفوائد على معاصريهم في حياتهم وعلى الاعقاب بعد مماتهم (٢) الثبات الرجل الداهية

حباك الله حاشيتيهِ عمراً واعمار الكرام مباركات
فقمتَ عليهِ تجربة وخبراً ومدرسة الرجال المجربات
تمرُّ عليك كالآيات تترى صنائع اهلهِ والمحدثات
فادركت « الجنار » وكان طفلاً فشبَّ فبايعتهُ الصافنات
تجاب على جناحيهِ الفيافي وتحكم في الرياح الجاريات
ويصعد في السماء على بروج غداً هي في العوالم بارجات
وبينا الكهرباء تمدُّ خرقاً اذا هي كل يوم خارقات
ودانَ البحر حتى خيض عمقاً وقيدت بالعنان السافيات
وبُلِّغت الرسائل لا جناح يجوب بها البحار ولا أداة
كأنَّ القطر حين يجيب قطراً ضمائر بينها متناجيات
فأين رياض اين مكان « مصر » اذا نزلت منازلها الجهات
أفي صف الممالك أم مقام أذلَّ كأنهُ « المستعمرات »
واين بجيد مصر حلى المعالي اذا التفتت ممالك حاليات
وهل تدعو البنين ليوم فخر كما تدعو البلاد المخيات
تُرى يُحيي الزمانُ منى « عليٍّ » وهل في بعدهُ بعثٌ صادقات
زمان الملك ممتنع كبير جلالتهُ القنا والمشرفات
تحايل دولة في « الشرق » قامت بناها ثمَّ ما مكثت البناة
أرادوا الملك حرًّا مستعبرًا ولم تُرد الجدود العاثرات

***

رهينَ الرمس حدثني مليًّا حديث الموت تبدو لي العظات
هو الخبر اليقين وما سواهُ أحاديث المنى والترهات
سألتك ما المنية اي كأسٍ وكيف مذاقها ومن السقاة
وماذا يوجس الانسان منها اذا غصَّت بلقمتها اللهاة
وايُّ المصرعين اشدُّ موتٌ على علم ام الموت الفوات (١)
وهل تقعُ النفوس على امانٍ كما وقعت على « الحرم » القطاة

(١) الموت فجأة

وتخلُّد أم كرعم القوم تبلى ... كما تبلى العظام او الرفات
تعالى الله قابضها اليه ... وناعشها كما انعش الحياة
وجازيها النعيم حمىً اميناً ... وعيشاً لا تكدره اذاة
أمثلك خائفٌ بالحق ذرعاً ... وفي برديك كان لهُ حُماة
أليس الحقُّ أنَّ العيش فانٍ ... وانَّ الحيَّ غايتهُ الممات
نم ما شئت لا توحشك دنيا ... ولا يحزنك من عيش فوات
تصرَّمت الشبيبة والليالي ... وغاب الاهل واحتجب اللدات (١)
وصارت مصرُ من حال لحال ... وأُخلفت الظنون الحادثات
خلت «حلية» (٢) ممن بناها ... فكيف البيت حولك والبنات (٣)
أفيه من «الحلة» قوت قوم ... ومن نعم ملأنَ «الطود» شاة (٤)
وهل لك من حريرهما وساد ... اذا خشنت لجنبيك الصفاة
تولى الكل لم ينفعك منهُ ... سوى ما كان يلتقط العُفاة
عباد الله اكرمهم عليهِ ... كرامٌ في بريتهِ أساة
كائدة المسيح يقوم بؤسى ... حواليها وتقعد باسات
اخذتك في الحياة على هنات ... وايُّ الناس ليس لهُ هنات
فصفحاً في التراب اذا التقينا ... ولوشيت العداوة والترات (٥)
خلقتُ كأنني عيسى حرامٌ ... على قلبي الضغينة والشتات
بساه اليَّ احياناً فأمضي ... كريماً لا أفوت كما أفات
وعندي للرجال وان تجافوا ... منازل في الحفاوة لا تفات

***

طلعت على «الندي» «بعين شمس» ... فوافتها بشمس الغداة
على ما كان يندو (٦) القوم فيها ... توافي الجمعُ وائتمر السراة
تماسكهم وفارقهُ في خشوع ... كما نظمت متيمها الصلاة

(١) اللدات جمع لدة وهي جيل الرجل وناس زمانه (٢) سراي الفقيد العظيم (٣) البنات الاثاث (٤) الحلة والطود من مزارع الفقيد العظيم (٥) الترات جمع ترة وهي الثار (٦) اي المصريون القدماء والمقصود بعين شمس

رأيتَ وجوه قومك كيف جلَّت ... وكيف تزعزعت مصر الفتاة
أجيلَ الرأي بين يديك حتى ... تبينت الرزانةُ والحصاة
وانت على اعنتهم قدير ... وهم بك في الذي تقضي حُفاة
اذا أبدى الشبابُ هوًى وزهواً ... اشار اليهِ حلمك والأناة
فهلاَّ قمت في النادي خطيباً ... لك الكلم الكبار الخالدات
تُفجِّر حكمة «التسعين» فيهِ ... فتُذكي الشيبة صاديات
تقول متى أرى الجيران عادوا ... وصمٌ عن الإخاء لهم شتات
واين أولو النهى منا ومنهم ... عسى يأسون ما جرح الغلاة
مشت بين الشيبة رسل شرٍّ ... وفرَّقت الظنون السيئات
اذا الثقة اضمحلَّت بين قوم ... تمزَّقت الروابط والصلات
فثقْ فعسى الذين ارتبت فيهم ... على الايام اخوانٌ ثقات
ورُبَّ محبٍّ لاصبر عنهُ ... بدت لك في محبتهِ بداة
ومكروهٍ على أخذات ظنٍّ ... تحبهُ اليك التجربات
بني الاوطان هبُّوا ثم هبُّوا ... فبعض الموت يجلبهُ السباتُ
تعدتم والخطوب لها قيام ... ونمتم والحوادث ساهرات
مشى للمجد خطفَ البرق قوم ... ونحن اذا مشينا الِلحفاة
يُعدُّون القُوى برًّا وبحراً ... وعُدَّتنا الاماني الكاذبات
كذاك القيد يمسي الطير فيهِ ... ولا تقوى الليوث الضاريات
وكم أنت القيود على شعوب ... فرَّقها التعاون والثبات
وإجماعُ النفوس على مرامٍ ... كما الْتفَّت على العلم الكماة
ورفقُ القوم بعضهمُ ببعضٍ ... كأنهمُ الاشقَّاء الحناة
وآمال تخامر كل نفس ... كأنفاس الحياة مردَّدات
وتحيي النفسُ ما مُلئت رجاه ... فان ذهب الرجاء فلا حياة

شوقي